

# اللّغةُ الْعَرَبِيَّةُ مِرَآةٌ تَعْكِسُ عَلَيْهَا قِيمَ الْإِسْلَامِ

لأستاذ محمد عبد الملاك الكتاني

(فاس)

اللغة العربية . ولا مجال للجدال في أن هذه الاقطان كانت لها حضارتها التفاوتية ولغاتها وأصالاتها القومية، كما أنه لا جدال في أنها ساهمت في بناء الحضارة العربية الإسلامية واتماء الثقافة العربية لدرجة أنها تناست أو كادت لغاتها المحلية واندمجت اندماجاً كلياً في كيان الأمة العربية بمعاطفها وثقافتها وتاريخها، فأصبحت اليوم الأمة العربية التي كانت محدودة في شبه الجزيرة العربية أمة تستوعب اقطاراً تمتد من الخليج العربي إلى المحيط الاطلسي يرجع الباحث إلى تاريخها القديم فتختلف به مسارب التاريخ ما بين مجاري الحضارات الفرعونية والفينيقية والفارسية والقوطية والبربرية .

فلماذا كانت العلاقة بين اللغة العربية والدين الإسلامي بهذا القدر من التواضع والاحتام؟ يرجع ذلك إلى أمرين :

الامر الاول امر يعم اللغات الإنسانية ، وهو سنته او قانونها الذي لا يتغير ، ونحوه ان اللغة هي الصورة التي تتجسد فيها قومية الأمة وخصائصها الفكرية والوجدانية ، اذ اللغة مؤسسة اجتماعية او ظاهرة اجتماعية بهذا المعنى الذي يجعلها أمراً ضرورياً لكل اجتماع بشري بالمعنى المأثور ، وبالمعنى الذي لا يتأتى لمجتمع ايجاد التواصل الانساني الا به ، ولا تثبت قوله واشكاله الا بواسطته ، فكانها الكيان

يبدو لأول وهلة ان العلاقة التي يمكن ان تقوم بين الدين واللغة لا تعدو ان تكون علاقة عادبة كالتي تكون بين كل الافكار او الحركات الفكرية التي تظهر في بيضة من البيض وبين لغة تلك البيضة . وقد يكتب لتلك الافكار او الحركات من الانتشار خارج اللغة التي نبت فيها أكثر مما يتحقق لها من الانتشار بلقتها الاصلية كعموم الافكار الفلسفية والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية . ولكن التمعن في العلاقة القائمة بين الاسلام واللغة العربية يجدها تتجاوز هذا الحد بحيث تصبح اللغة العربية هي المرأة التي تعكس فيها قيم الاسلام وتعاليمه وثقافته وحضارته وتتصل بها اتصال الشمس بشعاعها ، والمرأة بمنعكساتها ولا يلبث الاسلام ان ينتشر خارج الجزيرة العربية فلا يدخل بلداً الا ويفرض على أهلها عن اقتناع تلقائي تعاطي العربية والاندماج فيها وبالتالي التخلص عن اللغة المحلية تدريجياً . هكذا سار الاسلام وانتشار اللغة العربية جنباً الى جنب في البلاد المفتوحة .

هذه الظاهرة الملحوظة في تاريخ الاسلام وانتشار اللغة العربية معه تؤكد التلازم القائم بينهما . فقد فتح المسلمين بلاد فارس وما وراءها فنشروا فيها تعاليم الاسلام ولغة القرآن ، لأنهما متلازمان ، كما فتحوا مصر والشام وما وراء مصر غرباً من اقطار الشمال الافريقي وبلاد اسبانيا، ونشروا في هذه الاقطان جميعها

التاريخ بلغاتهم . وهذه اللغة بدون الرسالة الاسلامية ليست سوى لغة امة شاعرة بلوغت مشاعرها في لقائها ، وهذه ليست بالمرة التي تتغلب بها لغة على لغة ، اذ لكل امة من تلك المزية حظها المفتر بالقدر الذي يجعل كل امة تتغنى لغتها وتتعاطف معها دون غيرها . ولكن هذه العلاقة السببية لا تنعكس ، بمعنى انه لا يصح القول بأنه لو لا اللغة العربية لما انتشر الاسلام ، لأن اللغات لا تنشر لمزايا فنية خاصة بها ، فالمراد بها صفات نسبية وحظوظ مشتركة يصعبها الانسان الاجتماعي على لغته ، وانما تنتشر اللغات بالافكار العديدة والاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية ونفوذها مما تشمله الحضارة .

ولا نعتقد ان المغرب قد استعرب عبر تاريخه الاسلامي الا لما يمكن في هذا الاستمرار من تحقيق تواصل مباشر بالاسلام واندماج مع الحاملين لرسالته وانصهار في بوتقته بصورة تلقائية . والا لما كان له ان يؤثر لغة من اللغات على لغته المحلية ، وهو قد عرف دخول اللاتينية وانتشارها في الشمال الافريقي وصيروتها اللغة الرسمية والادبية وقبلها اللغة البوئيقية في فترة من فترات تاريخه ، ولكنه ظل بنجوة منها الى ان جاء الفتح الاسلامي واذا بالعربية تحمل ذلك الاشعاع الديني والحضاري الذي لم يجد بدا من التأثير به والاندماج فيه . على اثر ذلك لو ازالت من كل لغة عالمية عامل القبلة السياسية او الاشعاع الحضاري او النفوذ الاقتصادي لبطل طابع العالمية فيها واتحصر تأثيرها ضمن بيئتها المحدودة .

وهذا التلاحم بين العربية والاسلام له دليل ثان هو الجواب نفسه عن السؤال الثاني ، وهو ان الوعي الاسلامي والوازع الديني يقويان ويضعفان تبعاً لما يعتري لغة الاسلام الاولى من قوة وضعف في البلاد الاسلامية الناطقة بها حتى ان المستعمر الذي استولى على هذه البلاد ورام ان يطمس معالم الاسلام في مجتمعاتها باعتباره قوة هذه المجتمعات لم يفرق في نظره للإسلام بين الدين ولغة ، فحاول ان يقضى على الوعي الاسلامي السليم بضرب حصار على اللغة العربية وثقافتها والتمكين لثقافته الاجنبية حتى ينسف بذلك القاعدة الاساسية التي تقوم عليها شخصية المجتمعات الاسلامية . الواقع انه استطاع ان يحقق من مؤامرته قسطاً غير ضئيل في هذا المضمار ، وذلك عندما زلزل ثقة الاجيال التي نشأت في حكمه بلغتها

الاجتماعي الحقيقي للامة بكل ما يتسع له معناه او مجتوه من مصادر اخرى كالتقليد والقيم ومناحي التفكير والوان العيول والاذواق ، كل ذلك يتجسد في اللغة كما تتجسد قيم التبادل الاقتصادي في قطع المسوكوكات وأوراق العملة ، فضلاً عن كونها تعكس طاقات ونزوات في النفس لا تخفي على من يتأتي له ان يوازن بين اللغات على ضوء هذا الاعتبار .

والامر الثاني يتم هذه اللغة ولا يهم سواها ، وهو الذين الاسلامي ، فالدين الاسلامي بالنسبة للمجتمع المسلم هو البوتفة التي تنشر فيها الشخصية المسلمة ، وطابعه هو الطابع العام لحقيقة الجماعة الاسلامية كما كانت او كما ينبغي ان تكون . ولا عبرة هنا بما قد يرين على هذه النسبة المسلمة في وقت من الاوقات من ادران تحجب عن عين الرائي واقع الشخصية الاسلامية هذا الدين الاسلامي كان بتأثيره العميق بالقدر الذي اشرنا اليه ، وذلك بفضل رسالته التي تلائم الفطر الإنسانية ، وبفضل القراءان ذلك الكتاب السماوي المعجز الذي يلور تلك الحقائق كلها في صيغته المعجزة التي نلحظ فيها معطين :

المعطي الاول هو مضمونه الروحي الذي يتصل بالنفس ويهمن على الفكر ويخاطب طائف الانسان من روح وعقل وقلب ، ويسري في كيانه سربان الشعاع في اديم المرأة . وحسبك من ذلك ان المسلمين لا يخاطب في صلاته خالقه الاعلى بلغة اشرف من لغة القراءان ولا تبعد يستقطب توجهات الروح والفكر وسبحاته اسمى من تعبير القراءان . لانه وحده افضل صيغة لخطاب الادنى للادنى كما كان خير صيغة لخطاب الاعلى للادنى .

المعطي الثاني هو اعجازه اللغوي الذي ظل مناط الاحتجاج لنبوة الرسول عليه السلام وللحقيقة التي تقرها الآية : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين »

على ضوء هذا التقديم يمكن الاجابة عن الاسئلة المطروحة بكل يسر ، فالعلاقة السببية بين الاسلام واللغة العربية علاقة وطيدة ، اذ لو لا الاسلام لما كان لهذه اللغة ان تحل محل لغات عالمية في العصر الوسيط وتصبح لغة ازهى الادب الانسانية في عصر الاسلام الذهبي . وما كان اغنى امم الالاتين والهنود والفرس والسريان وغيرهم عن استبدال لغة العرب في بعض حقب

استغلته اللغات والثقافات الغربية غداة سيطرتها عليها في جعلها تنتهي في اتجاهاتها انتماطات اجنبية او تظل طافية على سطح الحياة الدولية تجرفها التيارات .

ومع ذلك فالفكر الاسلامي في تلك البلاد لم يكن له بد من التأثر بلغة القرآن كما لم تخل تلك الشعوب بحكم روحها الدينية من تعلق بالعربية وایمان بعظمتها. بناء على ذلك كله نستخلص العبرة التالية وهي انه لا نهضة صحيحة لامة الاسلامية الا بتحررها من التبعية اللغوية والثقافية والرجوع الى استقلاله اصلتها الحضارية والثقافية التي قامت على اساس الاسلام واللغة العربية .

الوطنية ، وقام جيلا من الناطقين بلغاته منفصلين عن ثقافتهم ودينهم ، وربما استخدموهم في الاستخفاف بناصالتهم الوطنية وتراثهم الحضاري .

اما الشعوب الاسلامية غير العربية فلا يمكن تجريدها من روحها الدينية الاسلامية مجرد انها ليست شعوبا عربية ، ولكن الذي نفترضه - مع اطلاعنا المحدود على لغاتها - انها بدون العربية لا تستطيع التواصل بعمق مع الاسلام بالقدر الذي يتساح للعرب انفسهم . فلو اتيح لها ان تستعرب وكانت أقوى تفاعلا مع امة العربية واكثر تلاحمًا مع الكيان الاسلامي . وذلك ما يمكن التعبير عنه بالفراغ الديني الذي

